

بنية المقدمات والخواتيم في الحكاية الشعبية المغربية - دراسة نماذج -

The structure of introductions conclusions in the Moroccan folktales - study of Models -

* د/سمية فالق

Dr/Soumia Falek

كلية الآداب واللغات جامعة عباس لغرور خنشلة الجزائر

University abess laghrour kenchela; Algeria

falek_soumia@hotmail. fr

تاريخ النشر: 2021/12/25	تاريخ القبول: 2021/05/20	تاريخ الإرسال: 2020/11/9
-------------------------	--------------------------	--------------------------

ملخص البحث

الحكاية الشعبية المغربية هي حكاية مرتبطة بواقع المجتمع، مكتملة الطول لها بداية ونهاية. تعرض مجموعة من الأحداث والأخبار، تتسم شخصياتها بالواقعية. فهي من بيئة المبدع الشعبي. يلعب الراوي دورا في سرد وصنع أحداثها، وفق بنية نصية مكتملة من ثلاثة عناصر وهي: بنية المقدمة، ونص الحكاية، وبنية الخاتمة. هذه البنية الهيكلية أضفت سمة فنية على النص المحكي خاصة في جذب السامع والمتلقي، وتسخير اللغة الشعبية من مهمتها التعبيرية إلى مهمتها التصويرية.

الكلمات المفتاحية: حكاية شعبية مغربية، بنية، مقدمة، خاتمة.

Abstract :

The Moroccan folk tale is a tale related to the reality of the society, full in length and has a beginning and an end. It presents a group of events and news, and whose characters are realistic. It is from the environment of the popular creator. The narrator plays a role in narrating and making its events according to a complete textual structure made of three elements: the structure of the introduction The structure of the introduction, the text of the story, and the structure of the conclusion This structure added an artistic feature to the spoken text, especially in attracting the listener and the recipient, and harnessing the popular language from its expressive mission to the pictorial one.

Keywords: Moroccan folk tale, structure of introduction, structure of the conclusion.

* د/سمية فالق: falek_soumia@hotmail. fr



1. مقدمة:

تتسم الحكاية الشعبية بغناها على مستوى المقولات الفكرية والتربوية، والاجتماعية والفنية. فهي واقع اجتماعي ثقافي لصيق بالمجتمع. وهي كل لا يتحرراً في بنيتها ووظيفته. هذه المادة المصنوعة من خيال الشعب الحر حول حوادث تظل متداولة وتصدق وتنتقل عن طريق الرواية الشفوية. وفي عملية انتقالها تحافظ على بنائها الشكلي خاصة بنيتي المقدمة والخاتمة.

ومما لاشك فيه أن الحكاية الشعبية المتداولة في المغرب، تتعبأ بكثير من العناصر والمعطيات التي تعاشها وتمارسها وتتصل بها، ولها نمط خاص يتكأ على بناء محكم في مقدمته وخاتمته. وهذا ما ستحاول الدراسة توضيحه وتحليلته بتقصي نماذج من الحكاية الشعبي المغربي.

تطرح الدراسة سؤالاً محورياً حول كيفية تشكل النسيج الحكائي الشعبي المغربي: كيف تبني المقدمة والخاتمة فيه؟ وهل هي بنية واحدة في كل النصوص الحكائية؟ ما علاقتها بالمضمون؟ وما هي وظائفها ولاياتها؟.

وللإجابة عن ذلك تتقصى الدراسة آليات المقاربة والتحليل في شرح النصوص للوصول إلى استنطاقها وتحليلها.

2. البنية:

البنية هي مفهوم وعنصر في العنوان. وهي الكيفية التي تنتظم بها عناصر مجموعة ما، ولا ينبغي القيام هنا بعرض تاريخي ونظري مفصل لمجمل ما كتب عن البنية والبنوية، في مختلف الفروع المعرفية. لكننا نحاول الإفادة من الشعرية البنوية فيما يتعلق بالبنيات اللسانية للنص المقدماتي. وحسب "ياكوبسون" R. Jakobson "أن الشعرية تهتم بقضايا البنية اللسانية وتحديدًا كما يهتم الرسم بالبنيات الرسمية. وما أن اللسانيات هي العلم العام للبنيات اللسانية، فإنه يمكن اعتبار الشعرية جزءاً لا ينفصل عن اللسانيات"¹. ووفقاً لما صاغه "ياكوبسون" من وظائف اللغة الست: مرسل، ومرسل إليه، وسياق، ورسالة، واتصال، وسنن. وهي عناصر التواصل اللغوي. هذا التصور يوضح مختلف العناصر المبنية للمقدمة. خاصة وأنها في إطار الحكاية القصصي الشعبي تشتغل وفق نسق متكامل يقوم على التفاعل بين عناصرها. لا مجرد تجاورها. فمهما تنوعت مواقع العناصر البانية للمقدم، فإنها لا تتنكر لوظائفها المركزية. فكل عنصر يخلق وظيفة لسانية. وما أن سياق الحديث عن الحكايات الشعبية، فالوظائف جميعاً تختزل في الوظيفة

الاتصالية، لأنها دلالة مجموع الوظائف الانفعالية والإفهامية والمرجعية والميتالسانية والشعرية. . ولأنها الأكثر حضوراً في الخطاب الحكائي الشعبي.

من هذا المنظور حاولنا استكناه حدود الحديث عن الوظيفة البنائية في المقدمات والخواتيم - محل الدراسة - فالشكل الديناميكي لا يتجلى نتيجة اجتماع تلك المكونات أو اندماجها... ولكن نتيجة تفاعلها، وبالتالي نتيجة ارتقاء مجموعة من العوامل على حساب مجموعة أخرى... هكذا يمكننا إذن أن نقول بأننا ندرك الشكل دائماً من خلال تطور العلاقة فيما بين العامل المسيطر الباني، والعوامل التابعة له². فحديثنا عن البنية من خلال التركيز على تفاعل العناصر، وتجاورها في المتن الحكائي، وبالتالي فغياب أي عنصر من العناصر الرئيسية في النص يؤدي إلى خلخلة بنيته، وبالتالي عدم تماسكه. ونشير إلى أن العناصر التي ستعتمدها الدراسة أساساً للبناء هي المقدمة والخاتمة.

3. . بنية المقدمة:

3. 1. المدلولات اللغوية:

يسعى هذا العنصر إلى إعطاء تصور عام عن المفهوم الذي تصدر عنه المقدمة. فقد ورد في معجم مقاييس اللغة لابن فارس أن "القاف والذال والميم أصل صحيح يدل على سبق"³، كما تعني أيضاً لغة الجيش للجماعة المتقدمة من قدم بمعنى تقدم، وقد أستعير لكل شيء فقيل: مقدمة الكتاب ومقدمة الكلام... وقالوا: مقدمة كل شيء في أوله، وهي ما استقبلك من الجهة والجيش . والمقدمة هي الناصية. والقدمات: القدم من الأشياء.⁴

وفي المعجم الوسيط: "المقدمة من كل شيء أوله ومن الجيش طائفة منه تسير أمامه، ومنه يقال مقدمة الكتاب وأيضاً مقدمة الكلام".⁵ أما في القاموس المحيط: "القدم والقَدَمَة: السابقة في الأمر"⁶. فالدلالة اللغوية للمقدمة تعني أول الشيء وبدايته.

نخلص من هذه المعطيات، إلى أن مجمل الشروحات المقدمة تلتصق بالوحدة اللغوية "قدم" فالمقدمة في اللغة هي خلاف المؤخرة. وهو المعنى الذي احتفظ به "ابن منظور" في انتقاله من حقل إلى آخر، فقد بدأ بمقدمة كل شيء، ومن الإنسان في وضعه الطبيعي إلى الإنسان في وضع الحرب، أي مقدمة الجيش، ثم إلى ما اتصل بالإنسان وهو الكلام والكتابة: مقدمة الكلام ومقدمة الكتاب.

نلاحظ أنه من خلال هذه الانتقالات أنه تم التركيز على فعل البداية أي أول الشيء، وأن أصل تسمية "المقدمة" ارتبط بمقدمة الجيش، وانتقلت هذه التسمية إلى الكتابة والكلام.

إذا عدنا إلى لفظة "مقدمة" في الفرنسية *préface* فإنها تحيل إلى اسم مؤنث: فعل التقديم، ما يمهّد لمعرفة علم ما. فعل إدخال شيء في شيء آخر. وهي نص تفسيري في بداية الخطاب - نص تمهيدي - ومفسر يوضع على رأس عمل/أثر ما *ouvrage*. أو رسالة تسهل لشخص ما قبوله من لدن شخص آخر بحث إليه. فالمقدمة تهيئ الآخر إلى معرفة أو تطبيق شيء ما.⁷

تستعيد هذه التعريفات خصوصيتها في ارتباطها بمجال معين. لتحديد مكان المقدمة، أي بداية الخطاب الأصلي، وهو النص الأول القبلي الذي يمهّد للخطاب ككل. ثم التصريح بتسمية هذه البداية بمصطلح "النص"، كما تم التصريح بوظيفته وهي التفسير والتمهيد للخطاب، بمعنى أن الخطاب هو ملك للكاتب. هذا التفسير عبارة عن تمهيد يمكن القارئ من متابعة سفر القراءة انطلاقاً من تفسيرات المقدمة. وبهذا يتحقق التواصل الفعال بين الكاتب والقارئ والمقروء لتسهيل عملية القراءة. فالبداية هي إعداد القارئ لفعل القراءة.

2.3. المدلولات الاصطلاحية:

إن المتصفح للمدلولات الاصطلاحية للمقدمة يجدها لا تختلف في دلالتها عن المعنى المرتبط بالتقدم. فبين المقدمة وعلم المنطق أي ما يعرف بـ"المقدمات المنطقية" صلة فهي أساس الاستدلال. وحسب هذا التصور هي "قول يوجب شيئاً لشيء، أو يسلب شيئاً عن شيء... فالمقدمات إذن مبادئ الاستدلال".⁸

يعرف الاستدلال بأنه استنتاج قضية من قضية أو من عدة قضايا. هذه القضية هي أساس الاستدلال، والذي يتضمن: المقدمة أو المقدمات، نتيجة لازمة لتلك المقدمات، وعلاقة منطقية بين المقدمة والنتيجة.

لتكون الأخيرة أعم من المقدمة أو المقدمات.

لقد تعددت تعاريف المقدمة انطلاقاً من أنها نص تمهيدي مغلق، يضعه المؤلف على هامش النص الأصلي المركزي. يهدف إلى توجيه القارئ لضمان قراءة جيدة للمؤلف. فهي "خطاب نقدي يوضع في الأصل بمثابة عتبة تسهل للقارئ الولوج إلى العمل الأدبي بالتركيز على الفلسفة العامة للكاتب أو الشاعر، وربط بعض النصوص بمناسباتها تسهيلاً على القارئ لفهم مضمونها، ومحاولة الإطاحة بكامل مكونات النص الشكلية والمضمونية، وشرح بعض غوامضه ورموزه... من أجل تشكيل رأي المتلقين وصياغة آفاق

تلقينهم، وتوجيه قراءاتهم. ⁹ لذلك "اعتبرت المدخل الرئيسي والطبيعي إلى أغوار النص فضلا عن كونها كلا جامعا لعناصر وجزئيات عديدة. . . ¹⁰".

وقد حظيت المقدمة باهتمام في الشعرية الغربية خصوصا لدى "جيرار جينيت" في كتابه "عبارات"، حيث يعرفها: "كل نص استهلاكي - ابتدائي أو نهائي -، يكمن في خطاب معطى - منتج - بخصوص النص الذي يليه أو يسبقه. ومن ثم تعتبر الخاتمة بمثابة تنويع على المقدمة ¹¹". ويضيف "أن المقدمة ما هي إلا خطاب استهلاكي يتضمن". كل ذلك الفضاء من النص الافتتاحي/liminaire والذي يعنى بإنتاج خطاب بخصوص النص، لاحقا به أو سابقا له ¹²".

كما وردت المقدمة متداخلة مع مصطلحات أخرى: كالتمهيد، والمطلع والفاصلة والتصدير والمدخل والاستهلال.

فحسب "جيرار جينيت" فإن أهم الاستهلالات الأكثر دورانا واستعمالا هي المقدمة، والتمهيد، والديباجة، والتوطئة، والحاشية، والمطلع. ¹⁴ هذا التداخل في تعدد المسميات يكشف لنا عن نزعة فردية نقدية في تناول المصطلح وشيوعه.

وبناء على ما سبق نحن ندور في فلك قراءة مصطلحية واحدة أساسها البدء والتقدم.

3.3 . بنية الخاتمة أو الانتهاء:

الخاتمة أو الانتهاء هو عبارة عن وحدة خطائية دنيا تنهي المقدمة، وتتجاوز هذه الوحدات أي أن النهاية هي نتيجة النص التي تعود على البداية.

إن تجارب النهاية مع البداية يستند إلى المنطق السببي في تتابع وتناسل الأفكار. وهذا الترتيب العادي للوقائع هو مظهر من مظاهر الانسجام ذلك أن ورود الوقائع في متتالية معينة يخضع لترتيب عادي تحكمه مبادئ مختلفة على رأسها معرفتنا للعالم ¹⁴. هذه المعرفة للعالم هي التي تفتح أفق الانتظار، فتكون فيه علاقة النهاية بالبداية هي علاقة مشابها، ويتوقف هذا الأمر على ما راكمه القارئ من تجارب تحدد مدى احتكاكه بتقاليد النصوص المقدمائية وتتنجلى أهمية التجربة السابقة في المساهمة في إدراك المتلقي للاطرادات عن طريق التعميم، ولن يتأتى له ذلك إلا بعد ممارسة طويلة نسبيا، وبعد مواجهة خطابات تنتمي إلى أصناف متنوعة، مما يؤهله إلى اكتشاف الثوابت والمتغيرات. وعلى هذا النحو يمكنه الوصول إلى تحديد الخصائص النوعية لخطاب معين". فالمسافة الفاصلة بين البداية والنهاية تقوم على التوقع: ضمن ما تزود به التجربة السابقة للمتلقي، أي القدرة على التوقع، أي توقع ما يمكن أن يكون

اللاحق بناء على وقوفه - أي المتلقي - على السابق¹⁵. هذا ما يقودنا إلى القول بتجاوب النهاية مع البداية، أي أن النص يخضع في بنائه إلى عناصر بنوية لازمة.

4. الحكاية الشعبية: فضاء الدلالة والمصطلح:

تعرف الباحثة "نبيلة إبراهيم" الحكاية الشعبية قائلة: "الخبر الذي يتصل بمحدث قدم ينتقل عن طريق الرواية الشفوية من جيل لآخر، أو هي خلق حر للخيال الشعبي ينسج حول حوادث مهمة وشخصيات ومواقع تاريخية." ¹⁶ أي أن الحكاية الشعبية تسرد خبرا متصلا بمحدث ماضي متوسلة الرواية الشفوية. ويضيف "عبد الحميد بورايو" بأنها "شكل قصصي، يتخذ مادته من الواقع النفسي والاجتماعي الذي يعيشه الشعب." ¹⁷ وبما أن الحكاية الشعبية لصيقة بآمالي وآلام الشعب، فالمبدع الشعبي يضمن مضامين فكرية "ترتكز على وجه الإجمال على حدث أو على بطل، وقد يكون هذا الحدث اجتماعيا أو سياسيا أو نفسيا، وقد يكون البطل طفلا صغيرا أو فتى يافعا أو بطلا شعبيا قوميا وتاريخيا، ولكن مهما كان الحدث ومهما كان عمر البطل فإن الشيء الأساسي الذي نلاحظه هو أن الحكاية تصور صراعا كبيرا بين الخير والشر، وبين الأخلاق الحميدة والصفات الذميمة السيئة." ¹⁸. فالحكاية - إذن - "إعادة بناء للواقع بطريقة تجعله مأهولا بالكائنات الغريبة، فتخلق عالما يتكلم فيه الحيوان وتحرك الأشياء وتحرر الغرائز، إنه عالم مفتوح على مصراعيه لكل أنشطة التخيل: تختلط فيه السخرية والمرح بعنف الرغبات الطفولية وتنطلق فيه حكمة السنين منظمة أحوال البشر من جديد" ¹⁹.

يستند عالم الحكاية الشعبية لواقع الإنسان، مضيفا عليه بعض العناصر التخيلية لإشباع حاجاته. مستدعيا الذاكرة الشعبية. وعليه "الحكاية الشعبية تواكب التطورات وترصد الأزمات وتصورها وتصور موقف الإنسان الشعبي منها، فالشخصيات النمطية التي مثلت الشطار والعيارين في الأدب الشعبي، تلخص في الوقت نفسه بعضا من قصصهم وموقف الطبقات الشعبية منهم، وبنية الحكاية، في الوقت الذي تقوم فيه بوظيفتها الروائية تؤدي وظيفة أخرى هي التعبير عن موقف الطبقات الشعبية من الأحداث الاجتماعية والسياسية التي تعصف بها." ²⁰.

نصل إلى أن الحكاية الشعبية هي شكل تعبير شعبي ذات طابع حسي، تصور العوالم بدقة، تتميز باستمراريتها، ذات أغراض وأهداف اجتماعية وتربوية، ترتبط بشخصها بالأممكة التي نشأت فيها، فتمتدج بالواقع الحقيقي في جوهره وأعماقه، وتصور الإنسان الذي يتصل بالعالم الآخر، ويخضع له.

5. هندسة الحكاية الشعبية المغربية:

تتعدد وتنوع الحكايات الشعبية في المغرب بمختلف مناطقه ونواحيه، وتلقى اهتماما كبيرا من قبل الجماعة الشعبية. والملاحظ أن هذا التراث الحكائي تراث غني وخصب ومتنوع يعيش مع الإنسان ويعبر عن حياته اليومية في أبسط أمورها. إنه تراث يحمل ملامح الشخصية المغربية يعبر عن فكرها وقيمتها ويصور حياتها.

وتلتزم الحكاية الشعبية المغربية بهندسية هيكلية خاصة تتشكل من ثلاثة عناصر أساسية وهي: مقدمة الحكاية، ونص الحكاية، وخاتمة الحكاية.

1. 4. بنية المقدمة في الحكاية الشعبية المغربية:

تتميز مقدمة الحكاية الشعبية المغربية بأشعار طويلة، هذا النص المقدماتي ينقل مجموعة من الأحداث والوقائع التاريخية، والتعاليم الدينية والخلقية، كما ينقل أيضا مجموعة من التصورات الخرافية والخيالات والخزعبلات البعيدة عن الحقيقة. هذه الافتتاحيات هي جمل نمطية تتموقع في بداية الحكاية، وقد تختلف تركيبا ولفظا.

وتنقسم هذه المقدمة إلى نوعين:

2. 4. المقدمة الطويلة اللازمة:

هذا النوع من المقدمات يعتبر لازما في أول كل حكاية شعبية مغربية، ولا يمكن الاستغناء عنه مهما كانت الظروف، فهم يقرون بوجوب إيرادها، لأنها دخلت في التقاليد بل هو لازمة تمثل ما تمثله البسملة في بداية الكلام، فصارت جزءا من الحكاية، فلا يمكن إلغاؤه أو حذفه. كما تتميز أيضا بالطول. وترد هذه المقدمة اللازمة كما يلي:

"كان حتى كان

حتى كان الله في كل مكان

حتى كان الحبق والسوسان

في حجر النبي العدنان

سيدنا ومولانا محمد

عليه الصلاة والسلام".

أو "في حجر النبي العدنان، سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام".

أو "سيدنا ومولانا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام".

أو "في حجر سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام".

هذه المقدمة يلتزم بها الراوي ولا يسمح لنفسه بالاستغناء عنها أو إهمال إيرادها مهما كانت الظروف. لكونها مدرجة ضمن التقاليد، وصارت جزءا من الحكاية ضروريا لا يمكن إلغاؤه أو حذفه.

3.4. مقدمة قابلة للزيادة والنقصان:

هذا النوع من المقدمات قابل للزيادة والتمطيط إذا اتسع الوقت وطاب المجلس . يعتمد على مجموعة من الروايات غير العارفين بالحكاية الشعبية وتقاليدها. فقد تلقى المقدمة المذكورة آنفا كاملة، وقد يستزيد المستمعون منها نظرا لجمالها وإمتاعها.

هذه المقدمة المثبتة ضمن النصوص قابلة لتغيير الترتيب بالتقدم أو التأخير خاصة إذا تعدد روايات الحكايات في الجلسة الواحدة، كما يمكن للراوي إثبات أجزاء والاستغناء عن أجزاء أخرى. أما الراوي الماهر فيحفظ هذه المقدمة كاملة، وقد يضيف إليها من حكايات أخرى.

كما يحدد نوع المستمعين ونوع الحكاية هذه المقدمة. فإن كانت حكايات موجهة للأطفال تساق لها المقدمة على النحو التالي :

"حتى كان الطاق

وطرطلاق

والكيش المشوي على لوراق

ناكل أنا وذاك وذاك

والمحساد يبقى هكاك".

أو تغير في جزء منها:

"ناكل أنا وذاك وذاك

والمحساد

يخليه الله هكاك".

هذه المقدمة تقدم لنوع من الحكايات التي تقدم للأطفال ك"حكاية حديدان الحرامي مثلا أو حكاية الشطار، أو حكايات الحيوانات التي تروي للأطفال مثل حكاية "لالا طيببت" أو "القبع وأم سيسي" أو "كشاد وكشيدان"... أو التربوية كحكاية "لالا عيشة لكصيرة"...²¹ وبما أن قاص الحكاية يرمي الوصول إلى غايات تعليمية ووعظية فإنه يتحدث عن الخراف وكيف تلتهمها النار التي تشوى عليها،

مصحوبة بصوت الأوراق التي تتطاير بالشرار نتيجة التهامها. هذه المأدبة التي تقدم للأقربين في غبطة وفرح. ويستثنى منها الحسود الذي يملأ قلبه الحقد والحسد والبغضاء، ليردد الراوي:

"حتى كان يالوكان

جاب شامية تلكتان

كالليهم يأهلي وأحابي".

وقد تبنى المقدمة على نحو آخر عندما يتعلق الأمر بعالم الأطفال الجميل، فيقول القاص:

"حتى كانت واحد أمي الستوت

لهلا يرحمها

يوم تموت

تدخل من عين المفتاحة وتتوكل

يامن ضيقتيها عليا

يالهي ضيقها عليه

وتخرج من عين للمخيظ وتكول

يامن وسعيتها عليا

يالهي ضيقها عليه".

ويضيف الراوي الشعبي:

"وتركد فالحرير وتكول - الكاف تقابل نطق القاف -

يامن رطبتها علي

يالهي حرشها عليه

وتركد فالشتب وتكول

يامن حرشتها عليه

يالهي حرشها عليه".

كما قد تقدم بنص آخر:

"حتى كان واحد الطوير

منيقيرو صغير

وجنيحو خضير

تيطير من هاد الشرافة

لهاد الشرافة

باسم الله

بدينا هاد لخرافة".

"وكلها نصوص جميلة وصالحة للأطفال تتعلق بالخراف المشوية والعصافير الملونة، وبأمي المتوت أي الشخصية الغريبة الأطوار الناقمة الحاقدة."²² كما تصور الطائر الجميل الملون بريشه الأخضر ومنقاره الصغير الأصفر، مرحا متنقلا بين الشرافات. ليروي في موضع آخر "تروي حكاية"أمي ستوت المتوت أيضا كشخصية مشاكسة معاكسة تتعامل دائما بالمقلوب"²³. فيفتتح الراوي حكايته ب:

"حتى كانت واحد أمي ستوت المتوت

ليلا يرحمها يوم تموت

تتدخل من عين المفتاحة وتوكل

يامن ضيقتيها

الهي يوسعها عليه

يامن وسعته عليها

الهي يضيقها عليه".

وأحيانا يفتتح الراوي حكايته بقوله:

"فقديم الزمان

والله علم على ماتقولو الناس

كيحكيلوا بحال هكذا

والله أعلم".

كما قد يفتتح الراوي حكاياته أيضا بمقدمة مختصرة جدا مثل: "كالك آسيدي هذا وحد أو هذي

... "، "قاليك آسيدي زمان كان وحد... "، "حاجيتك أما جيتك هذا أو هذي ... "

هذا الشكل المعماري الهندسي في الحكاية المغربية أمر لازم ويدخل ضمن تقاليد فن الحكيم، وتبرز موهبة الراوي وقدرته على حفظ هذه المقدمات وإيرادها ويتفنون في سردها في جلسات السمر. وتختلف الافتتاحيات تبعاً لاختلاف البيئة وتنوع المناطق. هذا ما جعلها تنوع صيغة وبناء.

4.4. أهمية بنية المقدمة في الحكاية الشعبية المغربية:

يلتزم الراوي بهذه المقدمات ولا بد عند البدء أن يعلن الحاكيم عن انطلاقة القص وهذا بالتسليم على النبي صلى الله عليه وسلم، لينطلق في فعل الحكيم بتريده عبارة "كان حتى كان". وهكذا ترتبط أحداث الحكاية الشعبية بوقائع وحياة الأفراد المغربي داخل مجتمعهم. فترتبط بواقعهم وتنقل ماضيهم من خلال محاولة ترسيخ لمختلف التقاليد والقيم، وإرساء لمجموعة من القوانين والنظم الاجتماعية المستنبطة من مضامين الحكايات.

نضيف أنه من بين العبارات اللازمة والتي يحرص الراوي على ترديدها "حتى كان الله في كل مكان" وقد يضاف لها في الابتداء "كان آسيدي حتى كان" وهي عبارات موازية لترديده "كان حتى كان" التي تفيد الدخول في حكاية جديدة.

فالبدء باسم الله وتحقيق وجوده في كل مكان. هو أمر في حقيقته ينم عن التمسك بالدين وهو من القيم الثابتة لدى الفرد. بدليل حرص الراوي على البدء بذكر البسملة قبل بدء فعل الحكيم. وهذا للتأكيد على وجود الخالق وأن الأحداث هي من صنعه وفقاً لإرادته وقدرته ومعرفته. فبالرغم من ارتباطها بالماضي "اللي كان" إلا أن سمة الدين والتمسك بالمعتقدات الإسلامية حلية وواضحة من خلال هذه المقدمات.

يدعو الراوي إلى نشر الإسلام وهي دعوة عقبها رائحة الحبق والسوسان، معطرة بتمسكهم بدينهم وبأصولهم الطيبة. لتتزل بعد ذلك منزلتها الثانية في حجر النبي صلى الله عليه وسلم. للتأكيد على أن المروى يدعو إلى الفضيلة والانسجام مع الدعوة الإسلامية، والتمسك بالرسالة المحمدية. وما يزيد الأمر تأكيداً هو حرص الراوي على البدء بالبسملة. فهو يمثل لفروض العبادة والتوحيد. مع الإشارة إلى رمزية حمل باقات الزهور والريحان. وهي عادة شعبية لها حضورها في المجتمع الشعبي المغربي خاصة عند زيارة الأضرحة والقبور. ناهيك عن تقديمها في مختلف المناسبات والأفراح.

5. بنية الخواتيم والنهايات في الحكاية الشعبية المغربية:

تتميز نهاية الحكاية الشعبية المغربية بمقاطع ختامية معلنة نهايتها، وتختلف صيغ النهاية كما اختلفت صيغ البداية. وهي بدورها أيضا متنوعة في المجتمع الشعبي المغربي نذكر منها:

ـ "وحجابتنا مشات معا الواد وسمعوها وليدات لجواد".

أو "حجابتنا الواد الواد وسمعوها وليدات لجواد".

أو "حجابتنا الواد الواد واحنا ابقينا مع لجواد".

أو "خرافتنا مشات مع الواد واحنا ابقينا مع لجواد".

أو "خرافتنا الواد الواد واحنا ابقينا مع لجواد".

يصل الأمر بالقاص لإنهاء قصته بإحدى العبارات السالفة الذكر، والتي تصب في مجملها أن الخرافة ذهبت مع الواد أي التي جرى بها النهر وذهب بها. وهنا هي رسالة للموعظة والاستذكار، وأيضا دلالة على استمرارية الحياة لأخذ العبر منها. "ويزيد الراوي بأن هذه الحكاية التي ذهبت مع الواد، والتي تحكي عن الأشرار والأخيار وتقف عند مفاسد الشر لا يجوز مطابقتها تماما على الواقع، لأن الشر ذهب مع النهر ولقي جزاءه، وسيلقى جزاءه دوما، وأنا اليوم في مجتمع نظيف ليس فيه إلا الأجواد، أي الناس الطيبون الصالحون، بحيث لا يمكن أن يتكرر مثل هذا، وأن إيراد مثل هذه الحكاية هو بهدف التعلم فقط، والتفطن والإدراك، أما الحياة فليست شراكلها.

ومن آداب أهل مراکش ألا يجرحوا شعور الحاضر أو المستمع. وعندما يرون قصة صراع الخير والشر فإنهم يتحاشون ما يمكن أن يتسرب إلى وهم المستمع من أنهم يكون عنه أو يقصدونه بإيراد مثل هذه الحكاية، ومثل هذا النموذج. فيبادرونه إلى إخباره بأن حكايتنا هي حكاية أقوام غابرين، ذهبوا مع تيار الحياة، وأن مثل هذه النماذج لم يعد لها وجود في الحاضر وأنهم لا يقصدون التعريض بالمستمع ولا التنكية عنه، لأنه من أجود الناس وأخيارهم، وإنما تروى هذه الحكاية للتذكير بما جرى به نحر الحياة من أحداث ومشاكل، وهذه مسألة معروفة في الأخلاق الشعبية.²⁴

وقد تنتهي الحكاية بنموذج آخر نحو:

"أوانفاضت لخرافة

واتهرست الزلافة

واللي بغى شقيقة يديها".

"والزلافة هي الآنية الصغيرة العميقة التي تستعمل لشرب الحساء ربما تكون جاءت فقط لمشاهدة كلمة الخرافة قبلها. وربما تكون هذه الزلافة هي التي كان يجتمع الناس عليها لشرب الحساء والاستماع إلى الخرافات، فتعلن لهم الرواية بأن الخرافة قد انتهت، وآنية الحساء قد تكسرت، فلا حاجة بعد إلى الاجتماع، ولكي لا يتشبث أحد بالمقام فإنها تعلن لهم أن هذه الآنية التي تجمعهم يستطيعون أن يتفاسموا شظاياها إذا كانوا يتشبثون بها، ولكن عليهم أن ينصرفوا لأنها لم تعد على استعداد لمتابعة القصة."²⁵

ويلجأ الراوي أحيانا إلى نهايات مشوقة معلنا تركه للحكاية ولأبطالها فيقول:

"وخليتهم تم. وجيت أنايا في حالاتي".

أما إذا كانت الحكاية موجهة للأطفال، وتمتد أحداثها مع جانب من الخيال، فيلجأ الحكاكي إلى اختتامها بقوله: "أوجيت ليكم عكيكيز تلحلوى

تيدوب تيدوب
أني كاديتو ليكم
مع لكذوب".

فلقد أحضر لهم عكازا من الحلوى لكنه للأسف ذاب في الطريق ولم يصلهم، مع الاعتراف في نهاية الأمر أن ما قيل مجرد كذب وأوهام وخيال، وهو الكذب نفسه في إحضار الحلوى التي وعد الأطفال بها. في الضفة الأخرى من الحكايات نجد عبارات الاختتام مقتضبة يلجأ إليها الراوي لإشعار المتلقين بنهاية الحكاية. إذ نجد حكايات لا يذيلها المتلقي بتوقيف الحكاكي، وتمثل الخواتيم بما يلي: "هادا هو"، "واهي هادي"، "واهاد الشي اللي أعطا الله"، "والكول ديال الله"، "وهااد الشي كاع كاين"، "وانا زدت فحالاتي أخليتهم"، "وأنا جيت وأخليتهم".

وبهذه الخواتيم يجمل الراوي الشعبي حديثه القصصي هادفا تحقيق متعة ترفيهية وفكرية ونفسية ووجدانية. مع المساهمة في خلق عالم قصصي مزيج بين الحقيقة والخيال. ليتحقق بذلك النمط الفني الخاص بالحكاية الشعبية التي لها هندستها وعواملها ولغتها وأساليبها أيضا.

فكانت المقدمات والخواتيم من استراتيجيات الحكاكي، لأن دورها لم يكمن فحسب في افتتاح القصة وختمه وإنما أيضا شد ولفت انتباه السامع. وهنا تكمن براعة الراوي، لذلك فقلة من الناس من ينجحون في رواية الحكايات الشعبية أو إثراء أحداثها ونسج خيوطها والانتقال من عالم إلى آخر. وهنا يبرز إبداع الراوي.

6. خاتمة:

مانريد الخلوص إليه من هذه الدراسة:

- المقدمات هي البوابة التي يمكن من خلالها العبور إلى النص المركزي.
- تمثل الوضعية البدئية في حكاية ما النواة التي ينطلق منها الفعل السردي. بينما تمثل الوضعية النهائية المآل الذي تنتهي إليه الأحداث بعد سلسلة من التطورات. وتظل العلاقة بين الوضعتين قائمة بصورة من الصور. لكن درجة تجليها تختلف من نص حكاياتي إلى آخر.
- إن حفاظ الرواة على إيراد مقدماتهم قبل سرد حكاياتهم وعدم أكثرتهم بالمضامين هو تقليد سردي توارثته الرواة، كما نشير إلى اختلاف التقدم من منطقة إلى أخرى، وبين المدينة والريف أيضا.
- الراوي هو الذي يضع النص المقدماتي ولا يشترط أن تكون له صلة وثيقة بالنص المروي.
- يستدعي أن يكون المقدم على وعي تام بطبيعة المتلقين.
- يتوجب على الحاكي أن يتقن لعبة بداية نصه الحكائي، والتي توحد طقس الاستماع والاهتمام لدى المتلقين.
- يتخذ النص المقدماتي موقعا بينه وبين النص المركزي فاصل، والذي يتم إدراكه بتقنيات مختلفة، تحددها مهارة الراوي.
- النص المقدماتي في الحكايات الشعبية المغربية هو نص منغلق من حيث مظهره، له بداية ونهاية، محدودة على مستوى الكم. وهذا الانغلاق هو الذي يمنحه شكلا قارا في بنيته ونموذجا ينقله الخلف عن السلف. هو أشبه ما يكون بنموذج بناء القصيدة العربية القديمة.
- لا توضع المقدمة والخاتمة في النصوص الحكائية الشعبية دون هدف. وإنما تؤدي وظيفة كبرى في المقام الأول، وهي إرشاد جمهور السامعين، وتحقيق الانسجام بين وحدات النص الحكائي.
- المسافة الفاصلة بين المقدمة والخاتمة، أي بين البداية والنهاية، تقوم على التوقع، أي ما يمكن أن يكون ضمن ما ترويه التجربة السابقة للمتلقي.
- إن قانون التكرار الذي تخضع له مختلف النصوص المقدماتية والخاتمية يحكمه مبدأ التشابه على مستوى الشكل، أي طريقة بناء المقدمة والخاتمة. مما يسمح بالقول بتجاوب المقدمة مع الخاتمة عن طريق إقامة علاقات بين وحدات النص الحكائي. وفق ما يستدعيه طبيعة الحكيم والنص أيضا.

- تؤدي المقدمة مجموعة من الوظائف في النص الشعبي كالوظيفة التربوية والتي تتجلى في التأثير الذي يمارسه الراوي على المتلقي. فتمنحه حق التوجيه والإرشاد أي التأثير ليصرح بالفعل التعليمي بشكل إلزامي من خلال السياق. ويحقق أهدافا معرفية عقلية، وأهدافا وجدانية تحتم بالمواقف والقيم العاطفية التي يراد تنميتها في المتلقي.

- إن التعالق بين الوضعيتين البدئية - المقدمة - والنهائية - الخاتمة - يفرض أسئلة من قبيل: ما الذي حدث على امتداد المسافة بين الوضعيتين؟ وكيف حدث؟ ولماذا حدث؟ وهي أسئلة تمر إجاباتها عبر تمييز معالم إضافية للشكل الحكائي وهو نظام المقاطع. وهنا دعوة للمهتمين بالدراسات الشعبية الخوص في تحليل البنيات السردية للمحكيات الشعبية المغربية.

هوامش:

¹Jakobson Roman; Essais de linguistique générale; les éditions de minuit; paris;1963;page210

²المنهج الشكلي، نصوص الشكلانيين الروس، ترجمة: إبراهيم الخطيب، مؤسسة الأبحاث العربية، ط1، بيروت، لبنان، دت، ص ص 78، 77.

³ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، ج5، دار الفكر، دط، 1979م، ص 65.

⁴ابن منظور، لسان العرب، مادة قدم، ط3، دار صادر، بيروت، لبنان، 2004م، ص 466.

⁵إبراهيم أنيس، عبد الحليم منتصر، المعجم الوسيط، ج2، ط2، دار المعارف، مصر، 1973م، ص ص 720، 719.

⁶الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تحقيق مكتب التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، ط5، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2005م، ص 1147.

⁷.Le petit Robert 1;paris;1985; preface.

⁸الغازي علال، مقدمة في كتاب المترع البديع في تجنيس أساليب البديع للسجلماسي، ط1، مكتبة المعارف، الرباط، 1980م، ص 163.

⁹عبد الله العشي، زحام الخطابات، دط، دار الأمل، تيزي وزو، 2005م، ص 273.

¹⁰عبد العزيز حسوس، نقد الشعر عند العرب في الطور الشفوي، ط1، منشورات الوراثة الوطنية، مراكش، المغرب، 2008م، ص 35.

¹¹Genette Gérard; introduction a l' Aichi texte; seuils;1982;page9.éditons

¹²عبد الحق بلعابد، عتبات جيران جنيت من النص إلى المناص، ط1، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2008م، ص 112.

- ¹³ المرجع نفسه، ص 112.
- ¹⁴ محمد خطايي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 1991م، ص 38.
- ¹⁵ المرجع نفسه، ص ص 58، 57.
- ¹⁶ نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ط2، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، دت، ص 159.
- ¹⁷ عبد الحميد بورايو، القصص الشعبي في منطقة بسكرة دراسة ميدانية، دط، دار الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007م، ص 118.
- ¹⁸ طلال حرب، أولية النص نظرات في النقد والقصة والأسطورة والأدب الشعبي، دط، المؤسسة الجامعية للدراسات للنشر والتوزيع، لبنان، 1999م، ص 122.
- ¹⁹ محمد فخر الدين، الحكاية الشعبية، بنيات السرد والمتخيل، تقديم: مصطفى يعلى، دط، دار النشر للمعرفة، المغرب، 2014م، ص 21.
- ²⁰ طلال حرب، أولية النص نظرات في النقد والقصة والأسطورة والأدب الشعبي، ص 126.
- ²¹ مالكة العاصمي، الحكاية الشعبية في مراكش، القسم الأول، دراسة تمهيدية، إشراف: عباس الجزائري، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في الأدب العربي، جامعة محمد الخامس الرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مخطوط، 1986، ص 212.
- ²² المرجع نفسه، ص 213.
- ²³ مرجع نفسه، ص 213.
- ²⁴ المرجع نفسه، ص ص 224، 223.
- ²⁵ مرجع نفسه، ص 224.
- بالنسبة لنصوص المقدمات والخواتيم جمعتهما الباحثة د/سمية فائق من المغرب.